مدن "الازدواجية الحضرية" في الغرب الإسلامي خلال العصر المريني
فاس الجديد – منصورة تلمسان – ألبنية الجزيرة الخضراء

د. محمد لملوكي

أستاذ التعليم العالي مساعد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – أكادير
جامعة ابن زهر – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

أنشأ المرينيون (٨٦٩ – ٦٠٩هـ/١٢١٢- ١٤٦٥م) مدنًا جديدة على رأسها "فاس الجديد" في المغرب الأقصى و"المنصورة" في المغرب الأوسط - الجزائر الحالية- و"ألبنية" في الأندلس في سياق تطور دولتهم ونشر مشروعهم السياسي. وفرت لها تجربة المغرب الأقصى في ميدان العمران أرضية خصبة للتطور والنمو، فوصل بذلك بعضها درجات من الإشباع الحضري ضاهت به كبريات عواصم العالم الإسلامي كما هو الشأن بالنسبة لمدينة فاس الجديد. جاءت فكرة هذه المدن في خضم الهاجس العسكري الذي سيطر على المرينيين في الجبهات الاستراتيجية لدولتهم؛ وهكذا أنشئت فاس الجديد بعد عمل عسكري أسفر عن فتح المدينة وتهدئة الأوضاع بها، وتطورت منصورة تلمسان في ظل محلة السلطان المحاصرة لتلمسان مدة طويلة، بل وعبرت بعض النصوص أنها جاءت تجسيدا لنشوة الانتصار الذي حققه السلطان أبو يعقوب يوسف (٦٨٥ - ٧٠٦هـ)، أما ألبنية الجزيرة الخضراء فجاءت في سياق تثبيت قاعدة الجهاد بالأندلس وإسكان الجند المرابطين هناك. تفردت هذه المدن بمميزات خاصة بإقامتها إلى جانب حواضر كبرى تنتمي إلى مراحل تمدينية سابقة. وهو ما يجعل هوية هذه الكيانات محط تساؤل واستفهام من لدن العديد من الدراسات. هل يتعلق الأمر بمدن كاملة الصلاحية أم هي مجرد قصبات أم هي أرباض كبرى أم قلاع إلخ. ومن جهة أخرى تطرح تساؤلات حول طبيعة علاقتها مع غريمتها المجاورة؛ أهي علاقة تضاد وتنافس؟ أم علاقة تكامل وظيفي وتجانس؟.

بيانات المقال:

تاريخ استلام البحث: ١١ نوفمبر ٢٠١٤
تاريخ قبول النشر: ٢٥ يناير ٢٠١٥

كلمات مفتاحية:

الغرب الإسلامي، الدولة المرينية، المجتمع الفاسي، الأندلس، وصف إفريقيا

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد لملوكي. "مدن الازدواجية الحضرية في الغرب الإسلامي خلال العصر المريني: فاس الجديد – منصورة تلمسان – ألبنية الجزيرة الخضراء".- دورية كان التاريخية.- العدد الثامن والعشرون؛ يونيو ٢٠١٥. ص ٦٤ – ٧٠ .

مُقَدِّمَةْ

أُنشئت في الغرب الإسلامي نهاية الحقبة الوسيطة مدنًا جديدة إلى جانب أخرى سابقة، سمتها العديد من المصادر التاريخية بالمدن الجديدة وأحيانًا المدن البيضاء. أسس المرينيون منها ثلاثة؛ تمتد في شكل مثلث: فاس الجديد وسط المغرب الأقصى حاليًا، ومنصورة تلمسان بالجزائر الحالية، وألبنية الجزيرة الخضراء بالأندلس أي جنوب إسبانيا حاليًا. وفرت لها تجربة المغرب الأقصى في ميدان العمران أرضية خصبة للتطور والنمو، فوصل بذلك بعضها درجات من الإشباع الحضري ضاهت به كبريات العواصم في العالم الإسلامي. وإذا كانت الدراسات حول الظاهرة الحضرية بالغرب الإسلامي حققت لنا تراكمًا معرفيًا كشف لنا جوانب هامة من ظروف نشأة المدن وتطورها ومكوناتها بل والمشارب الفكرية التي نهلت منها، فإنها على مستوى الكيف والنوع ما تزال بحاجة إلى التنقيب والبحث. وهكذا تطفو مسألة تصنيف ذلك التراث الحضري الذي ميز الفترة الوسيطية وإبراز خصوصياته موضوعًا ينبغي أن توجه نحوه الأبحاث المستقبلية. في هذا الإطار، سنحاول في هذا العرض ملامسة السياق التاريخي العام لإنشائها، وتحديد هوية هذه المدن من خلال مكوناتها المعمارية والوظائف المنوطة بها وطبيعة التجمع الحضري بها، وإلى أي حد تعبر عن خصوصية عمرانية في الجزء الغربي من العالم الإسلامي.

أولاً: فاس الجديد: (قاعدة ملك المرينيين)

١/١- أسباب ودواعي التأسيس:

تتحدث المصادر التاريخية عن مسببات ودواعي إنشاء المدينة حيث تجمع أنها من تأسيس المرينيين وبأمر من السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق[١] أول ملوك بني مرين سنة (٦٧٤هـ/١٢٧٦م).[٢] ويوضح الوزان سياق التأسيس قائلاً: "ولما فرغ يعقوب من حرب مراكش راودته الرغبة في الانتقام من ملك تلمسان، وعزم على محاربته فوجد أن معاقل مملكته نائية جدًا عن تلمسان، وصمم على تشييد هذه المدينة الجديدة".[٣] ويقدم ابن خلدون أسباب تأسيس السلطان المريني لهذه المدينة كالآتي ".. ولما سكن غرب الثوار، وتمهد أهل المغرب، ورأى أمير المسلمين أن أمره قد استفحل وملكه قد استوثق، واتسع نطاق دولته وعظمت غاشيته، وكثر وافده، ورأى أن يختط بلدًا يتميز بسكناه في حاشيته وأهل خدمته وأوليائه الحاملين سرير ملكه، فأمر ببناء البلد الجديد لصق فاس بساحة الوادي.."[٤] هذا النص يثير إشارات ذات دلالة هامة فيما يتعلق بطبيعة المدينة الجديدة ووظيفتها المستقبلية آنذاك. فالأمر في نظر ابن خلدون يتعدى القصبة أو القلعة المرتبطة بالبعد العسكري إلى مدينة للسكن والسلطان، وأن الظرفية التي تبلورت فيها أو نضجت فيها فكرة المشروع (بناء المدينة) هي السلم واستتباب الأمن واتساع نطاق الدولة ورخاء الاقتصاد، وهي ظروف من شأنها أن تقوي الأبعاد المدنية والعمرانية والتنظيمية كذلك في فكرة المشروع؛ على مستوى التخطيط وتوزيع الوظائف داخل المدينة. فهي بهذا المنظور مدينة سلطانية؛ بعدها العسكري مرتبط أكثر بسكن الجند وإقامة السلطان بها. ويزيد سياق نص ابن خلدون معلومات إضافية تربط هذا الإنجاز بنشوة الانتصار وإبراز مظاهر القوة والغلبة؛ حيث يقول: "ولما وصل أمير المسلمين (يعقوب ابن عبد الحق) إلى حضرته من غزاة الجهاد، ترادفت عليه أخبار هذه الملحمة وقطع دابر بني عبد المومن، فتظاهر السرور لديه، وارتفعت إلى الله كلمات الشكر طيبة منه.."[٥] وهذا المنطق يتماشى، في الفكر العمراني، مع فلسفة إنشاء المدن المرتبطة بمرحلة معينة من التحضر والاستقرار.

ومن جهتها تطرقت كتب المناقب إلى دواع من نوع آخر جعلت المرينين يتخذون بلدًا جديدًا لهم بعيدًا عن معارضيهم. يروي صاحب الروض العطر[٦] أن الفقيه إبراهيم الأعرج[٧] "كان يأمر الأمير بالمعروف وينهاه عن المنكر، فأكثر عليه فقال له: أخرج من بلدي، فلما خرج أصاب السلطان وجع شديد فأمر برده فقال: لا أدخل حتى يخرج هو، ولا نكون أنا وهو في بلد واحد. فخرج في الحين، فسكن عنه الوجع. وأمر ببناء المدينة البيضاء" وهذا السبب علق عليه القبلي بكونه حلا وسطا لإنهاء الصراع الذي نشأ بين الفقيه والسلطان.[٨] فهل يمكن الأخذ بهذا التفسير أمام الدواعي السالفة خصوصا وأن اهتمام المرينيين بعمران فاس العتيقة ظل متواصلا ؟

وهناك سياقات أخرى لاحقة تحدثت عن ظروف وأسباب التأسيس يمكن أن تقارن بالنصوص السالفة، ويحضر فيها البعد العسكري بشكل واضح؛ أبرزها رواية مارمول، الذي يقول: ".. والمدينة الثالثة هي فاس الجديد،.. وتقع منعزلة شيئًا ما..على شكل قصبة، ليقيم بها مع حاشيته".[٩] وفي سياق آخر، يضيف أنها "على شكل قلعة.."[١٠] وينطوي هذا الوصف الجغرافي لهذا الرحالة الأجنبي على تصنيف حضري، ارتكز على معايير في التحصين ".. وله (أي فاس الجديد) سور مزدوج متقن الصنع ومحصن ببروج"،[١١] ودقق ملاحظته بشأن الطبوغرافية بقوله عنها: "وتقع منعزلة شيئًا ما وبارتفاع معين من فاس البالي".[١٢] وهذا استنتاج مرتبط بالمعاينة الميدانية لفاس الجديد بعد قرنين تقريبًا من إنشائها، ولا يحيل على الظروف والسياق التاريخيين لتأسيسها. لهذا سنولي نظرنا نحو المعاصرين للفعل من مؤرخي البلاط المريني.

يشير صاحب روضة النسرين[١٣] إلى أننا بصدد مدينة بيضاء ودار للإمارة، تعرف بالبلد الجديد. ويضيف أن تقاليدًا وطقوسًا، معروفة لدى السلاطين، قد اتبعت أثناء التأسيس: كأخذ الطالع للمدينة وتم هذا الحدث بحضور فريق من أهل المعرفة بالهندسة والبناء ووفق تخطيط المدينة الإسلامية؛ وذلك ما يشير إلى جزء منه ظاهر نصه الآتي: "ولما أتم سورها، بنى بها قصره، والجامع الأعظم، والسوق الذي..، والحمام الكبير، وأمر الوزراء وأشياخ بني مرين ببناء الدور بها"[١٤] والظاهر كذلك من هذا النص أنها بنيت لتستوعب وتسع القبائل المرينية..لاسيما بعد أن اتسعت دولتهم، ومضت على دخولهم مدينة فاس قرابة ستة وعشرون عامًا.[١٥] ويؤكد هذا أيضا مؤلف الذخيرة السنية بقوله: "كان عزم أمير المسلمين يعقوب على بناء مدينة يتخذها دار ملكه وقرار سلطانه ويسكنها هو وخاصته وحشمه. ركب يوم الأحد الثالث شوال المذكور، وأخرج معه العرفاء والبنائين وأهل المعرفة بالصنائع، فتخيروا موضعا على واد فاس، وشرع في حفر أساسها...."[١٦].

لقد ذهبت بعض الدراسات في تفسيرها لأبعاد التأسيس إلى القول بأن موقف السلطة المرينية من المجتمع الفاسي المتوجس منهم خيفة هو الذي دفعهم إلى بناء هذه المدينة في الموضع الجغرافي الذي يمكنهم من التحكم في مجرى الواد الرئيس الموصل إلى المدينة، وبناء عسكري محكم يضمن سلامة وأمن المدينة.[١٧] فقد انتقلت إلى المدينة البيضاء وظائف القصبة القديمة التي بباب الجنود حيث انطلق منها الأمير المؤسس إيذانا بنقل مركز القرار والسلطة إلى النواة الجديدة. وأول ما أنشأه يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ) بعد تمام السور، هو بناء القصر الذي سيتخذه دارًا لملكه وقرارًا لسلطانه. ولا شك؛ أن وراء نقل صلاحيات القصبة إلى المدينة الجديدة الحاجة إلى فضاء واسع، يستوعب مؤسسات الدولة الجديدة وقبائلها، ويتماشى مع التطور الحضاري للدولة تاركين لفاس البالي استقلالها تحت تصرف عامل يدعى "الشيخ

إدريس بن قريش ". وتذكر المصادر أن الذي أوكل إليه هذه المهمة هو الأمير يعقوب بن عبد الحق.[١٨]

٢/١- المنجمون والفلكيون واختيار طالع المدينة:

تروي المصادر أن السلطان المريني يعقوب ابن عبد الحق أثناء اختطاطه المدينة الجديدة "أحضر لها الحزى والمعدلين لحركات الكواكب، فاعتاموا في الطوالع النجومية ما يرضون أثره، ورصدوا أوانه وكان فيهم الإمامان أبو الحسن بن القطان وأبو عبد الله بن الحباك[١٩] المقدمان في الصناعة".[٢٠] فماذا يضيف المنجمون ومعهم الفلكيون من معلومات للفريق الساهر على تأسيس المدن ؟ وما هي طرق اشتغالهم ؟ وما نوعية المعلومات التي يقدمونها للسلطان ؟ وهل يدخل عملهم ضمن الوظائف الهندسية العلمية أم ضمن الفكر الخرافي والشعوذة ؟

ثمة أسئلة عديدة تظل معلقة أمام سكوت الإخباريين تجاه عمل هؤلاء. والثابت أنه كان يستعان بهؤلاء في مهمات الأمور، سواء المواطنين أو الحكام، في محاولة منهم لمعرفة الأخبار الطيبة واستخراج الأوقات السعيدة في مباشرة الأمور العظام ومناولة الخطوب الجسام. ولأهمية هذا العلم في المغرب الأقصى، سعت الدولة العثمانية، فيما بعد، إلى مراسلة سلاطين المغرب بشأن إرسال منجمين خبراء إليها.[٢١] وبذلك تكون وظيفة المنجمين والفلكيين[٢٢] من أسمى وظائف القصر.

وإذا كنا لا نعلم شيئًا عن تفاصيل عملهم أثناء تأسيس فاس الجديد باستثناء اختيارهم لطالع سعيد لها بحيث لم يخرج منها جيش إلا وانتصر ولم يمت بها سلطان..،[٢٣] فإن معلومات أخرى عن مدن إسلامية تقربنا من بعض الطقوس التي قام بها فريق المنجمين أثناء التأسيس. فالمقريزي، وهو يتحدث عن القاهرة، يشير إلى "أن القائد جوهرا لما أراد بناءها (يعني القاهرة) أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد، ظاهر مصر، ليقيم بها الجند. وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس وطالع لحفر السور، وجعلوا بدائر السور قوائم خشب؛ بين كل قائمتين حبل فيه أجراس..".[٢٤] وهذا الحضور للمنجمين وغيرهم لا يخرج عما سبق الحديث عنه من قبل من اعتقاد المجتمع الفاسي والوسيطي بشكل عام، في الثقافة الخرافية الموروثة عن الحضارات السابقة أحيانًا، وانحراف بعض الوظائف العلمية والتجريبية كالفلك عن مجالاتها أحيانًا أخرى؛ فالفلكيون بحساباتهم عرفوا بضبطهم للمواقيت واعتمد فلكيو القرويين قدوة لغيرهم من مساجد فاس.[٢٥]

ثانيًا: مدينة المنصورة: (تتويج للحصار المريني لتلمسان)

١/٢- السياق التاريخي لعلاقة المرينيين بتلمسان:

تقع مدينة تلمسان في الشمال الغربي للجزائر. استقل بها بنو عبد الواد واتخذوها قاعدة لملكهم إبان ضعف الدولة الموحدية، بينما دخل بنو عمومتهم، المرينيون، مدينة فاس وجعلوها معقلاً لهم بعد مفاوضة أهلها وفقهائها من لدن الأمير أبي بكر المريني سنة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م).[٢٦] دخل الطرفان في صراع بينهما وصل إلى نزال في معركة وادي ايسلي (قرب وجدة) سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م).[٢٧] وقد برهنت هذه المواجهة عن قوة المرينيين وبالمقابل، أظهرت ضعف بني عبد الوادي واضطرتهم إلى الانزواء بقاعدة ملكهم تلمسان. وهكذا؛ استمرت سياسة الأخذ والرد بين تلمسان والمرينيين تارة بطلب الصلح كما حدث سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م)، أو بالمنازلة كما هو الشأن سنة (٦٧٠هـ/١٢٧١م)،[٢٨] وتارة أخرى بالهدايا المقدمة لمدينة فاس سنة (٦٧٣هـ/١٢٧٤م).[٢٩] فقد أشار الوزان إلى المتاعب التي كان يخلقها ملوك تلمسان لبني مرين سواء بدعمهم لخصومهم الموحدين أو بعرقلة امتداد نفوذهم جهة الشرق،[٣٠] ولم يثن السلطان يعقوب بن عبد الحق، كما يضيف الوزان، سوى بعد تلمسان عن قاعدة ملكه التي لم تكن آنذاك فاس الجديد.[٣١] لذلك ما إن أسس المدينة الجديدة بفاس وجعلها عاصمة ملكه حتى تحرك إليها أبو يعقوب يوسف من مدينة فاس سنة (٦٩٥هـ/١٢٩٥م) في حركة أطلق عليها اسم "حركة الدار الحمراء"،[٣٢] وحاصرها لمرات عدة كان أهمها سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م)؛ بنى خلالها مدينة جديدة بظاهرها على غرار ما فعله أبوه بفاس أطلق عليها اسم "تلمسان الجديدة".[٣٣]

٢/٢- مدينة المنصورة: (نموذج لمدن الحصار المرينية)

شكلت مدينة تلمسان محط أطماع الدولة المرينية منذ نهاية الدولة الموحدية لما لهذه المدينة من استراتيجية تتماشى والأهداف التوسعية لبني مرين، فبعد الهزائم المتوالية التي مني بها الزيانيون،[٣٤] قرر السلطان أبو يعقوب يوسف (٦٨٥_٧٠٦هـ) المضي في سياسته التوسعية نحو الشرق ومحو آثار بني عبد الواد في تلمسان؛ وذلك بإنشاء مدينة مرينية بجوار تلمسان التي استعصت عليه، لاسيما وأن تجربة أبيه مع مدينة فاس لا تزال حاضرة في ذهنه. فضرب الحصار تلو الآخر عليها، إلا أن أهم حصار عرفته المدينة امتد من (٦٩٨ إلى ٧٠٦هـ/ ١٣٩٩- ١٤٠٦م) من قِبل السلطان المريني أبي يعقوب يوسف.([٣٥])

وتستطرد الأسطغرافيا المرينية في وصف آثار هذا الحصار ونتائجه على المدينة؛ فصاحب روضة النسرين يصف حالة التلمسانيين بأنهم أنهكوا "حتى أكلوا الجيف والحشرات وجميع الحيوانات من الفئران والعقارب والحيات والضفادع وغير ذلك حتى أكل بعضهم بعضا، وكانوا يغوطون ويجعلون غائطهم في الشمس حتى يعود يابسا فيطبخونه ويأكلونه، وهو في ذلك يشدد عليهم الحصار، ويقول: لأواصلنه عليهم حتى أقتلهم جوعًا.."."[٣٦] ورغم ما في هذا الوصف من مبالغة، فهو يدعم فكرة الإصرار لدى المرينيين على فتح المدينة. وتثبت ذلك أيضًا تقنيات الحصار وإجراءاته؛ فقد بنى أبو يعقوب، أثناء حصاره "سورًا عظيمًا جعله سياجًا على تلمسان وما اتصل بها من العمران وصيرها في وسطه، ثم أردف ذلك السور من ورائه بحفير بعيد المهوى. وفتح فيه مداخل لحربها ورتب على أبواب تلك المداخل مسالح تحرس... وأخذ بمخنقها من

بين يديها ومن خلفها حتى لم يخلص لها الطير".[٣٧] ويضيف الناصري أن المرينيين استعانوا في حصارهم لها بآلة المنجنيق.[٣٨] وفي رواية ابن خلدون أن السلطان يوسف بن يعقوب نصب على تلمسان "القوس البعيدة النزع العظيمة الهيكل المسماة بقوس الزيار"،[٣٩] وأثناء هذا الحصار تم تشييد مدينة المنصورة بمكان فسطاط المعسكر... وأدار عليها السور وأمر الناس بالبناء.. وصيرها مصرًا وسماها المنصورة تيمنًا بالنصر.[٤٠]

٣/٢- دوافع تأسيس المدينة ومكوناتها:

جاء ذكر مدينة المنصورة في العديد من المصادر المرينية. فابن أبي زرع تحدث عن المنشآت التي قام السلطان المريني بتخطيطها بالمدينة كالقصر والجامع الكبير والسور المحيط بالمكان، وانفرد بتسمية المدينة بـ "المحلة" أو "تلمسان الجديدة" ولم يرد في حديثه اسم "المنصورة" حيث يقول: ".. فانتشر الناس في البنيان بالمحلة يمينًا وشمالاً..".[٤١] ويضيف بعد ذلك أنه في سنة ٧٠٢هـ "أمر أمير المسلمين يوسف ببناء السور الأعظم على تلمسان الجديدة".[٤٢] ويرجع سبب بنائها إلى المشقة التي لقيتها الجيوش المرينية في المنطقة مع دخول فصل الشتاء.[٤٣] وهو ما دفع، في نظره، أبا يعقوب المريني إلى اتخاذ القرار بإنشاء مدينة تقيه وجيوشه من تلك الطبيعة القاسية.

أما ابن الأحمر (ت. ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م)، فاقتصر في حديثه عن المنصورة بذكر أن السلطان المريني أبا يعقوب شرع في بناء مدينته التي أطلق عليها اسم "تلمسان الجديدة" عند محاصرته لمدينة تلمسان سنة (٦٩٨هـ/ ١٢٩٩م). واختار لها موقعا بظاهرها.[٤٤] ويشير إلى أن الحصار دام سبع سنين، وهو خلاف ما جاءت به المصادر الأخرى كابن خلدون وابن أبي زرع، والتي قدرت الحصار بثماني سنوات. ويذكر ابن خلدون " أن السلطان المريني أبا يعقوب اختط بمكان فسطاط المعسكر قصرًا لسكناه واتخذ به مسجدًا، ثم أحاط المسجد والقصر بسور. وبنى الناس من حولهما الدور والمنازل والقصور وشقوا الترع وبنوا القنوات. وفي سنة (٧٠٢هـ / ١٣٠٣م) أدار السلطان على العمران كله سورًا عظيمًا".[٤٥] وأضاف، في سياق آخر، أن اسم المنطقة التي استقرت فيها الجيوش المرينية وشيدت فيها المدينة الجديدة تدعى "مجشر بن الصيقل".[٤٦] وتطورت مظاهر الحياة العامة بها، واختار السلطان المريني لتولي القضاء بها العالم المفتي علي بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن أحمد المليلي الحميري.[٤٧]

ثالثا: ألبنـية: (قاعدة للجهاد المريني في الأندلس)

توجد هذه المدينة مجاورة لمدينة الجزيرة الخضراء أو ما يسمى حاليًا بـ"الخزيرات"، وهي مدينة تقع أقصى الطرف الجنوبي لإسبانيا بحيث تطل على البحر المتوسط. يحدثنا ابن خلدون عن سياق تأسيس هذه المدينة المرينية بقوله "ورجع - يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦-٦٨٥هـ)- إلى الجزيرة لشهرين من غزاته ونظر في اختطاط مدينة بفرضة المجاز من العدوة لنزل عسكره، منتبذًا عن الرعية لما يلحقهم من ضرر العساكر وجفائهم، وتخير لها مكانًا لصق الجزيرة، فأوعز ببناء المدينة المشهورة بألبنية، وجعل ذلك إلى نظر مَنْ وثق به من ذويه. ثم أجاز البحر إلى المغرب في رجب سنة أربع وسبعين، فكان مغيبه وراء البحر ستة أشهر..".[٤٨]

حدد لهذه المدينة مسبقًا الهدف منها، فهي لنزل العسكر والحاشية وكأنها معسكر موسمي عابر، فهي إحدى المبررات التي قدمتها المصادر المغربية بخصوص فاس الجديد. أما عن المصادر الاسبانية فيروي لنا محمد الشريف نقلاً عن "حوليات ألفونسو العاشر"[٤٩] أن قرار بنائها أي "الْبُنَيَّة" كان شهر يوليوز 1279 م عقب نجاح المرينيين في فك الحصار الذي تعرضت له الجزيرة الخضراء. وبخصوص الدوافع تقول الحوليات: «وعبر أبو يوسف بعد ذلك من طنجة إلى الجزيرة الخضراء، ووجد العديد من المنشآت التي تركها المسيحيون، ولأنه أدرك أن ذلك المكان حيث بنيت فيما بعد المدينة الجديدة للجزيرة الخضراء كثير الضرر، في حالة حصار خارجي، وأنه من الممكن خسارته، سارع إلى إنشاء مدينة أسست بذلك المكان وسُمّيت باسم المدينة الجديدة للجزيرة الخضراء، وعمرها بالمنازل التي تركها المسيحيون مشيدة، وبقي الأمير هذه المرة بالجزيرة الخضراء بضعة أيام".[٥٠] وقد أبانت بعض الدراسات الاسبانية استنادًا إلى نتائج التنقيبات الأثرية في الموقع عن العديد من المعالم العمرانية المميزة للمدينة الإسلامية من قصر، ومسجد، وحمام، ومبان عمومية أخرى.[٥١]

خاتمة

من خلال صفحات هذا المقال تظهر لنا أوجه التشابه والاختلاف بين المدن المرينية الثلاث. فأوجه الشبه بينها يكمن في طبيعتها الازدواجية؛ بمعنى أنها أقيمت إلى جوار مدن أخرى سابقة. وجميعها من تأسيس الدولة المرينية، بالإضافة إلى طغيان الهاجس العسكري على إنشائها. أما أوجه الاختلاف؛ فيمكن إجمالها في تباعد المجال الجغرافي بينها، بحيث تعبر مواقعها عن جهات القلق العسكري (فاس العاصمة وتلمسان العبد الوادية على الجبهة الشرقية ثم جبهة الجهاد في الأندلس). واختلاف مؤسسها؛ بحيث أسس فاس الجديد وألبنية السلطان أبو يوسف يعقوب فيما أسس أبو يعقوب يوسف مدينة المنصورة. وأخيرًا؛ فمدينة فاس الجديد هي التي استطاعت مقاومة نوائب الزمن والبقاء إلى عصرنا الحالي بينما طال التدهور والاندراس المدينتين الأخريتين.

الملاحق:

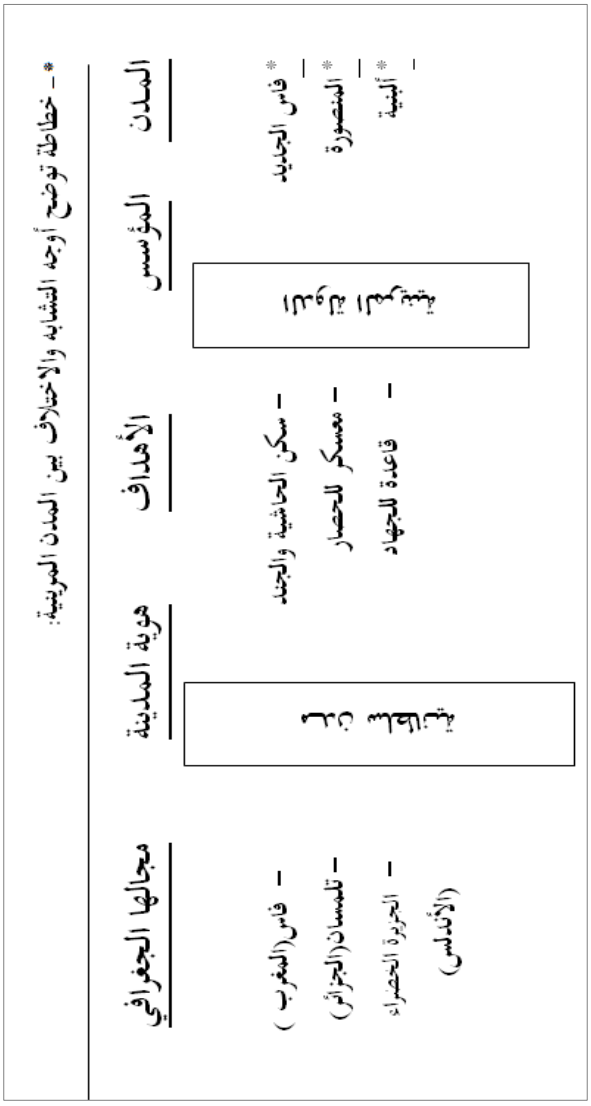

* الخطاطة من إعداد الباحث

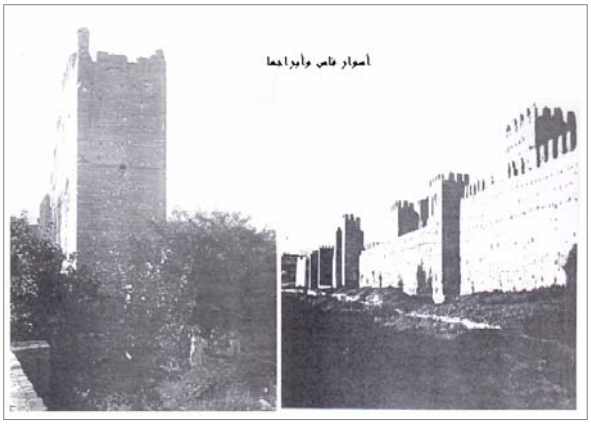

صورة رقم (١) أسوار فاس وأبراجها

المصدر: صور مدينة فاس الجديد إبان الحماية الفرنسية - مديرية التراث بالرباط

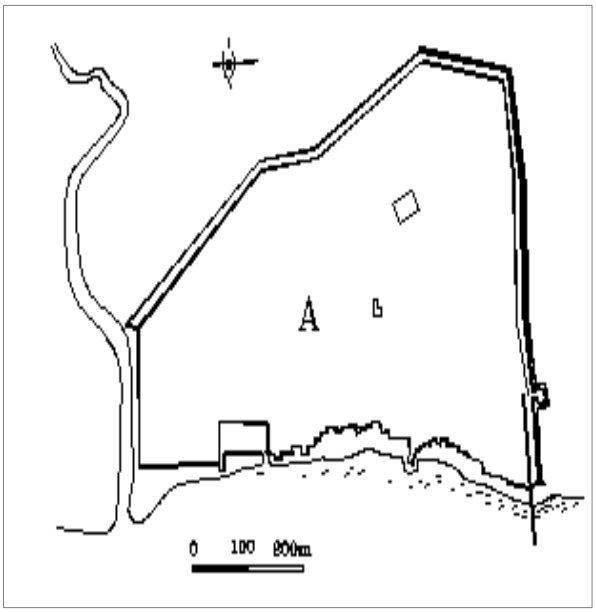

مخطط رقم (١)

مدينة ألبنية المرينية في الجزيرة الخضراء

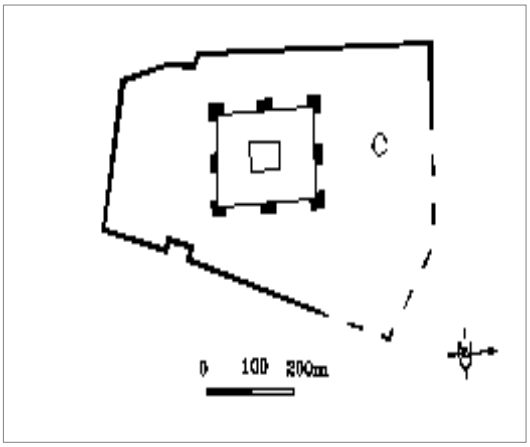

مخطط رقم (٢)

أفراك

المصدر:

Marçais (G.), *L'Architecture d'Occident musulman, Tunisie, Algérie, Maroc, Espagne et Sicile*, Paris, 1946. P. 318.

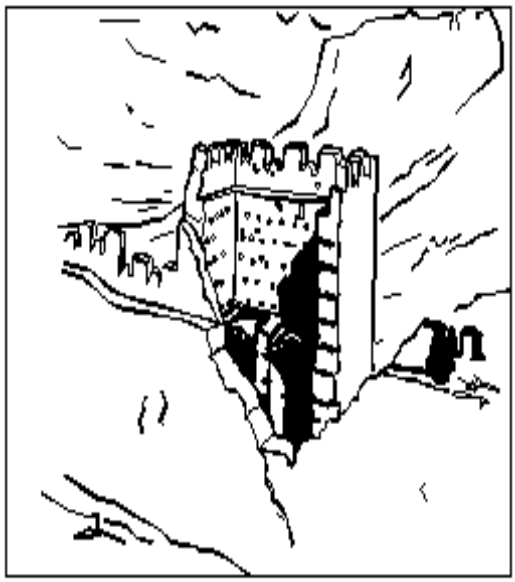

مخطط رقم (٣)
مقطع لأحد أبراج مدينة تلمسان

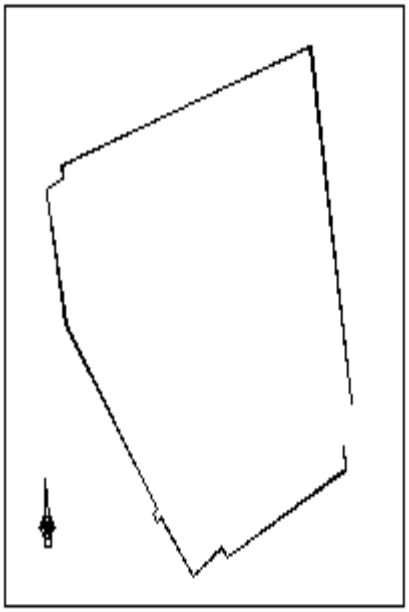

مخطط رقم (٤)
سور تلمسان المرينية

الهَوامِشُ:

(١) ".. استولى على ملك الموحدين... كان دخوله إلى مراكش في يوم عاشوراء سنة ثمان وستين وستمائة لما أتته البيعة من أهلها، إلا أنه تحول عنها إلى مدينة فاس وصيرها دار للخلافة ومقر الإمارة.. فكانت مدته من أول يوم ظهوره ثمان وعشرين سنة وستة أشهر واثنين وعشرين يومًا.. " كما ترجم له صاحب "**الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة ، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٩، ص ١٧١.

(٢) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي وآخرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ج١، ص ٢٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٨٢.

(٤) ابن خلدون، **العبر**، ج٧، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٤٠٢.

(٥) ابن خلدون، **كتاب العبر...**، م.س، ص ٤٠٢ .

(٦) **الروض العطرة الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**، المنسوب لأبي عبد الله محمد بن عيشون الشراط، ١١٠٩هـ/١٦٩٧ م، دراسة وتحقيق زهراء النظام، منشورات جامعة محمد الخامس، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ٣٥، ط١، ١٩٩٧، مطبعة النجاح الجديدة، ص ٢٨٩ .

(٧) هو أبو ابراهيم اسحاق بن يحيى بن مطر الورياغلي، عرف بالأعرج، دفين خارج باب الجيسة، وكان إماما بجامع الشطة بفاس، عاصر السلطان المريني أبو يوسف يعقوب. ينظر : - **الروض العطر...**، ص ٢٨٩.

(8) KABLY Mohamed, *Société, Pouvoir, Religion au Maroc à la fin du Moyen Age*, Paris, 1986, p 274.

(٩) مارمول كربخال، **افريقيا**، ج٣، ترجمة محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار نشر المعرفة، الرباط، ١٩٨٨، ص١٥٥.

(١٠) المصدر نفسه، ص ١٥٥.

(١١) المصدر نفسه، ص ١٥٥

(١٢) المصدر نفسه، ص ١٥٥.

(١٣) ابن الأحمر، **روضة النسرين**...، ص ٢٩.

(١٤) المصدر نفسه، ص ٢٩-٣٠.

(١٥) ملك المرينيون مدينة فاس سنة ٦٤٦هـ/ بزعامة الأمير ابو بكر بن عبد الحق كما سلف ؛ وتم بناء المدينة الجديدة سنة ٦٧٤هـ على يد أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق. يُنظر: - الوزان، **وصف افريقيا**، ج١، ص ٢٨٢. وابن الاحمر في **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص١٦١ – ١٦٢.

(١٦) **الذخيرة...**، م.س، ص ١٦١.

(١٧) الدبيش عبد الوهاب، **فاس المرينية بين سنتي ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦ م – ٧٥٩هـ/ ١٣٥٨ م "المجال والمجتمع وعلاقتهما بالدولة"**، د.د.ع في التاريخ، ك.ا.ع.ا ظهر المهراز فاس، ١٩٨٨ – ١٩٨٩ م، غير منشورة، ص٢٦١.

(١٨) ابن أبي زرع علي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣ ، ص ٤٩.

(١٩) **ابن الحباك**: هو مبتكر الساعة المائية التي نصبها في الغرفة العليا بمنارة القرويين سنة (٦٨٥/١٢٨٦م) حتى تعرف منها-أيام الغيم- أوقات الصلوات النهارية والليلية. وهو الذي اضطلع بنصب القبلة لمدرسة الحلفاويين (الصفارين) بفاس. نقلا عن محمد المنوني، **ورقات عن حضارة بني مرين**، منشورات ك.آ.ع.إ- الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٠، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، ١٩٩٦، ص ٣٥٨.

(٢٠) ابن خلدون، **العبر...**، م.س، ص ٤٠٢.

(٢١) تقول الرسالة التي أوردها التميمي: ".. ولما سمعنا أن حوزتكم تحتوي جمعا من حذقة أهل النجوم ومهرتها، طلبنا راسخا منهم في صناعتها. ثم جاء سفيركم ولم يستصحب منهم أحدا. وعرفنا من أخباره أن الأمر قد التبس عندكم لعدم الاطلاع على حقيقة الحال، فقبلنا العذر وأكدنا الطلب على هذا المنوال حين أدرجنا هذه المذكرة في كتابنا المعنون بتوقيعنا المنيف المختوم طرفه بخاتمنا الشريف. والمطلوب من جنابكم الملكي أن تأمروا بانتخاب ماهر في فن النجوم عالم بمبادئه ومقاصده ضابط لأوابده وشوارده، بحيث لا يكون مثل بعض القوالين وهو غير خبير ولا مثل بعض الدجالين وهو غير بصير...". ص ٣٧١ - نقلاً عن: عبد الجليل التميمي، "تاريخ العلاقات الثقافية بين استانبول والمغرب الأقصى خلال العصر الحديث"، في **دراسات ووثائق في التاريخ المغاربي في العصر الحديث**، زغوان، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ١٩٩٩، ص ٦٣-٧٣.

(٢٢) **علم التنجيم**: هو فرع من العلوم الفلكية يدرس كيفية الارتباط المفترض لبعض الكواكب بالأحداث التي تجري على الأرض. ينظر : - المنوني، **ورقات**.. م.س، ص ٣٥٦.

(٢٣) **الأنيس المطرب**... م.س، ص ٢٢٢.

(٢٤) المقريزي تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد، **الخطط المقريزية، المسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، م٢، منشورات دار إحياء العلوم، لبنان، دون سنة طبع، ص ٢٠١.

(٢٥) بمنارة القرويين غرفة موقوفة على توقيت الصلوات..لا يتولاها إلا بارع في علم الفلك.. ومن أبرز فلكيها عبد الرحمن الجادري (٨٣٩هـ/٣٥-١٤٣٦م)... ينظر:- المنوني، **ورقات**...، م.س، ص ٣٦٥، وأيضًا: - **فاس عاصمة الأدارسة ورسائل أخرى**، محمد المنتصر بالله بن محمد الزمزمي الكتاني، وضع فهارسه واعتنى به الشريف حمزة بن علي الكتاني، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص ٦٣.

(٢٦) ابن الأحمر إسماعيل، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص ٧١.

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٩٧.

(٢٨) المصدر نفسه، ص ١٣٠-١٣١.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ١٤٠.

(٣٠) الوزان، **وصف افريقيا**، ج١، م.س، ص٢٨٢.

(٣١) الوزان، **وصف افريقيا**، م.س، ص ٢٨٢.

(٣٢) إسماعيل بن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، ط ٢، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، المطبعة الملكية، الرباط، ص ٦١.

(٣٣) المصدر نفسه، ص ٦١.

(٣٤) **بنو زيان**: هو الاسم الذي حمله ملوك تلمسان من احفاد وورثة يغمراسن بن زياد.. وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة، غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس (أي بني مرين)". يُنظر: - الوزان، **وصف افريقيا**، م.س، ج٢، ص ٧ - ٨.

(٣٥) ابن خلدون، **كتاب العبر**... م.س، ص ١٩٦.

(٣٦) ابن الأحمر، **روضة النسرين**... م.س، ص ٦١.

(٣٧) الناصري أبو العباس أحمد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤، ج٣، ص ٧٩.

(٣٨) المصدر نفسه، ص٦٩.

(٣٩) ابن خلدون، **العبر**، ج٧، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ٢٢٠.

(٤٠) المصدر نفسه، ص ٢٢١.

(٤١) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس**، مراجعة عبد الوهاب بنمنصور، ط٢، ١٩٩٩، المطبعة الملكية، ص٥١١.

(٤٢) المصدر نفسه، ص ٥١١.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٥١١.

(٤٤) إسماعيل ابن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**، تحقيق عبد الوهاب بنمنصور، ط٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، المطبعة الملكية، الرباط، ص٦١.

(٤٥) **كتاب العبر**، م.س، مج ٧، ص ٢٢١.

(٤٦) ابن خلدون يحي، **بغية الرواد في ذكر بني عبد الواد**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ج ١، المكتبة الوطنية بالجزائر، ١٩٨٠، ص ٢١٠ نقلاً عن معروف بلحاج، "مدينة المنصورة الأثرية من خلال المصادر التاريخية"، **حولية المؤرخ**، ع٥، جوان ٢٠٠٥، ص ٦٥ – ٧٩.

(٤٧) إسماعيل ابن الأحمر، **روضة النسرين**، م.س، ص ٢٨ . والقاضي هو علي بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن أحمد المليلي الفقيه الإمام العالم المفتي المدرس القاضي، ولي القضاء في حضرة يوسف بن عبد الحق المريني وهو الذي كان يقضي له بالمدينة التي أحدثها بظاهر تلمسان عند حصار سلطانها عثمان بن يغمراسن بن زياد العبد الوادي."- ينظر ترجمته في:- أحمد ابن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٤، ص ٤٧١.

(٤٨) **كتاب العبر**، ج٧، م.س، ص ١٩٣.

(49) Crónica de Álfonso décimo, *B.A.E.*, Edic, Atlas, vol. LXVI, Madrid, 1953, P. 57.

(٥٠) محمد الشريف، **أضواء على مدينة أندلسية مجهولة: البُنيَّة: المدينة الملوكية المرينية بالأندلس**، **مجلة التاريخ العربي**، ع٥٤، سنة ٢٠١٠، صص ٢٤٧-٢٥٦.

(51) Navarro LUENGO, J.B. SALADO ESCANO, *Albinya, la Ciudad Palatina Merini de Algaciras*, Algasiras, 1999, P. 74.